

في شرقانية العلاقات الإسلامية - المسيحية¹

In the Orientalism of Islamic-Christian relations

د. عبد الحسين شعبان²

ملخص تنفيذي

يرصد الباحث العلاقات التاريخية بين المسلمين والمسيحيين من خلال رؤية معاصرة أساسها مبادئ المساواة والشاركة والمواطنة الكاملة، ويتوقف عند مفهوم "الأقلية" و"الأكثرية"، فالأول يستبطن الخضوع والاستتباع والقبول بالأدنى لاعتبارات العدد والحجم، أما الثاني فإنه يتضمّن التسيد والهيمنة والاستعلاء، فضلاً عن ادعاء امتلاك الحقيقة والأفضلية بدواعي "الهوية الكبرى" أو "الهوية الأعلى". وعلى الرغم من تأييد الباحث لإعلان حقوق الأقليات الصادر في العام 1992، إلا أنه استشكل التسمية واقترح بديلاً عنها "إعلان حقوق المجموعات الثقافية"، وخصوصاً في المجتمعات المتعددة الثقافات.

ومن هذا المنطلق تناول حقوق المسيحيين وما تعرضوا له من تمييز واستهدافات مؤخراً أجبرتهم على الهجرة، وهو ما تناوله في كتبه الثلاث عن المسيحيين، الأول - المسيحيون والربيع العربي 2012؛ والثاني - المسيحيون ملح العرب 2013؛ والثالث - أغصان الكرمة - المسيحيون العرب 2015، بالإضافة إلى طائفة من الأبحاث والدراسات المختلفة، بما فيها فقرة مطوّلة في كتابه "فقه التسامح في الفكر العربي - الإسلامي: الدولة والثقافة" (2005).

يتناول البحث إشكالية ومشكلات العلاقة الناجمة عن التعصّب ووليدته التطرّف ونتائجهما العنف والإرهاب بسبب فائض القوة في الممارسات السلطوية وفي التغوّل من جانب القوى المتعصّبة والمتطرّفة، فضلاً عن نقص الثقافة الحقوقية المجتمعية، لاسيّما فيما يتعلّق بالعلاقة مع الآخر، وتحديدًا المسيحيين، وهو موضوع البحث.

سلّط الباحث الضوء على "وثيقة الأخوة الإنسانية" (شباط / 2019)، التي وقعها شيخ الأزهر أحمد الطيّب وقدااسة البابا فرانسيس التي ركّزت على القيم الإنسانية المشتركة على العكس من نقيضها الإسلاموفوبيا (الرهاب من الإسلام) والويستفوبيا (الرهاب من الغرب).

¹ بحث تمّ تقديمه إلى مؤتمر المعهد الملكي للدراسات الدينية تحت عنوان: المسيحيون في المشرق العربي وطموحات الوحدة والتنوير، عمّان، 7 - 8 أيار / مايو 2025.

² أكاديمي ومفكّر وكاتب من الجيل الثاني للمجدّدين العراقيين. ولد في مدينة النجف (العراق)، له أكثر من 80 كتاباً ومؤلفاً في قضايا الفكر والقانون والسياسة الدولية والأديان والثقافة والأدب والمجتمع المدني وحقوق الإنسان، إضافةً إلى انصرافه للعمل الفكري والحقوق والتدريس الجامعي، فإنه اشتغل على نصوص سردية ثقافية وأدبية، تأليفاً ونقداً ومراجعةً، في نوع من الكتابة بأجناس متنوّعة وحقول مختلفة. حائز على وسام أبرز مناضلي لحقوق الإنسان في العالم العربي (القاهرة - 2003).

يعتبر الباحث أن فرضية الصراع بين المسلمين والمسيحيين مفتعلة بزعم انتماء المسيحية إلى الغرب، في حين أنها شرقانية مثلما هو الإسلام شرقي، فالسيد المسيح (ع) ولد في بيت لحم وعاش في الناصرة (فلسطين)، ومن هناك انتشرت المسيحية، وكذلك ولد النبي محمد (ص) ولد في مكة وعاش في المدينة المنورة، ومن الجزيرة العربية انتقلت الدعوة الإسلامية إلى أرجاء المعمورة.

فالاختلاف إذن ليس بين المسيحية والإسلام، وإنما بين الغرب السياسي الذي يمثل فلسفات وأيديولوجيات ومصالح، وبين بلدان المنطقة وشعوبها التي تعرّضت للاستلاب ونهب الثروات، سواء كان مواطنوها مسلمون أم مسيحيون أم غيرهم. وقد نظر الإسلام إيجابياً إلى المسيحية التي سبقته بستة قرون، حيث ورد في القرآن الكريم المسيح "روح القدس" و "قول الحق"، وتلك التعاليم لا يجمعها جامع مع دعاوى التكفير التي تدعو إليها الجماعات التكفيرية مثل القاعدة وداعش وشقيقاتهما.

المسيحية والإسلام بنت المنطقة العربية، وساهم المسيحيون بدور متميز في بناء الحضارة العربية - الإسلامية، ولذلك فهم ليسوا طارئین أو دخلاء، بل هم أبناء المنطقة وعاشوا فيها قبل مجيء الإسلام وبعده.

ولذلك فإن الحديث عن صراعات الأديان أو الحضارات لا أساس له، كما روج له صاموئيل هنتغتون، فيما يخص المنطقة العربية التي عاش فيها المسلمون والمسيحيون بسلام ودون حروب، وإن كان ذلك لا يعني أنه ليس ثمة تمييز أو انتقاص من حقوق المسيحيين.

يعرض الباحث الخسارة الفادحة لهجرة المسيحيين مثلما كانت خسارة كبيرة هجرة اليهود، وهو ما استفادت منه إسرائيل واستثمرته في دعايتها التي تقول أن الصراع بيننا وبين العرب هو صراع ديني بين المسلمين واليهود، وإذا كان المسلمون لا يتحملون وجود المسيحيين وغالبيتهم عرب بينهم، فكيف يتحملون وجود يهود؟ في حين أن الصراع العربي - الإسرائيلي هو صراع حول "الحقوق والأرض" وليس حول "قيم السماء".

ويخلص الباحث إلى أن العيش المشترك والمواطنة وحكم القانون هو السبيل لتعزيز العلاقة الإسلامية المسيحية، مشدداً على التنوع في إطار الوحدة، داعياً إلى مشروع قانون لتحريم التمييز الديني والمعاقبة عليه، مع ضمان تشريعات تمنع التمييز على صعيد كل بلد وعلى المستوى الدولي، كما يقترح مشروعاً لدول المنطقة يطلق عليه ويستقالياً مشرقية أساسها احترام مبادئ السيادة وعدم التدخل في الشؤون الداخلية والحق في الخصوصية، وتلك كانت مبادرة من سمو الأمير الحسن بن طلال لحوار معرفي ثقافي يضمّ مثقفين من دول الإقليم: الترك والفرس والكرد والعرب، ويقوم على الاستقلال المتكافئ، وهو ما أطلق عليه "أعمدة الأمة الأربعة".

Abstract

The researcher examines the historical relationships between Muslims and Christians through a contemporary lens based on the principles of equality, partnership, and full citizenship.

He focuses on the concepts of "minority" and "majority." The former implies submission, subordination, and acceptance of being lesser due to numerical and size considerations, while the latter entails dominance, hegemony, and power, as well as the claim to possess truth and superiority under the pretext of "greater identity" or "superior Identity".

Although the researcher supports the Declaration of Minority Rights issued in 1992, however he questioned the terminology and propose an alternative: "Declaration of Cultural Group Rights", especially in multicultural societies.

From this perspective, the researcher addresses the rights of Christians and the discrimination and targeting they have faced recently, which has forced many to emigrate. This topic is explored in his three books about Christians: the first - Christians and the Arab Spring (2012); the second - Christians: The Salt of the Arabs (2013); and the third - Branches of the Vine: Arab Christians (2015). In addition to a range of various research and studies, including an extended section in his book The Jurisprudence of Tolerance in Arab-Islamic Thought: State and Culture (2005).

The research addresses the issues and problems arising from intolerance, its offspring extremism, and their outcomes: violence and terrorism due to the surplus of power in authoritarian practices and the overreach of intolerant and extremist forces. This is compounded by a lack of community legal culture, particularly regarding the relationship with the other, specifically Christians.

The researcher highlighted the Document of Human Fraternity (February, 2019) signed by Sheikh Alazhar Ahmed el-Tayeb and His Holiness Pope Francis, which focused on shared human values, in contrast to its opposite: Islamophobia (fear of Islam) and Westophobia (fear of the West).

The researcher considers the hypothesis of conflict between Muslims and Christians to be fabricated by claims that Christianity is Western, where as it is Eastern just as Islam is Eastern. Jesus Christ was born in Bethlehem and lived in Nazareth (Palestine), from where Christianity spread. In addition, The Prophet Muhammad was born in Mecca and lived in Medina, and from the Arabian Peninsula, the Islamic message spread across the world.

The difference, thus, is not between Christianity and Islam, but rather between the political West, which represents philosophies, ideologies, and interests, and the countries and peoples of the region that have been subjected to exploitation and the plundering of their resources.

Whether its citizens are Muslims, Christians, or others. Islam has viewed Christianity, which preceded it by six centuries, positively. In the Holy Quran, Christ is referred to as "the Spirit of Holiness" and "the Word of Truth", these

teachings have no connections with the calls for takfir promoted by extremist groups like Al-Qaeda, ISIS, and their affiliates.

Christianity and Islam are products of the Arab region, and Christians contributed to the construction of Arab-Islamic civilization, playing a distinguished role. Therefore, it can be said that Christians are not newcomers or outsiders; they are sons of the region and lived there before and after the advent of Islam.

Therefore, discussing religious or civilizational conflicts in the Arab region is groundless as promoted by Samuel Huntington, regarding the Arab region where Muslims and Christians lived in peace without wars, although this does not mean that there is no discrimination or deprivation of the rights of Christians

The researcher presents the significant loss caused by the emigration of Christians, similar to the severe loss experienced by the emigration of Jews, which Israel has benefited from and exploited in its propaganda that the conflict is religious between Muslims and Jews, claiming that: If Muslims cannot tolerate the presence of Christians, the majority of whom are Arabs, how can they tolerate the presence of Jews? Whereas The Arab – Israeli conflict is, in fact, a struggle over rights and land, not about "heavenly values."

The researcher concludes that coexistence, citizenship, and the rule of law are the means to strengthen Islamic-Christian relations, stressing the importance of diversity within the framework of unity. He calls for a legal project to prohibit sectarian discrimination and to impose penalties for it, along with ensuring legislation that prevents discrimination both at the national level and internationally.

He also proposes a project for the countries of the region called "Eastern Westphalia" based on respecting the principles of sovereignty, non-interference in internal affairs, and the right to privacy. This was an initiative by His Highness Prince Hassan bin Talal for a cultural and intellectual dialogue that includes intellectuals from the region's countries: Turks, Persians, Kurds, and Arabs, and is based on mutual independence, which he referred to as "The Four Pillars of the Nation".

عوضاً عن المقدمة

سألني بعض المهتمين في أكثر من ندوة ومؤتمر، لماذا أفردت مساحة واسعة من اهتماماتك الفكرية وانشغالاتك الثقافية لموضوع التسامح واللاعنف، والعلاقة بين الهويات الفرعية والهوية العامة، وإشكاليات إدارة التنوع في مجتمعاتنا؟ ثم ما هي الجوامع والمشاركات بخصوص حقوق المجموعات الثقافية، الدينية أو الإثنية أو القومية أو السلالية أو اللغوية؟ وما هي المُختلفات والفروقات بينها؟ ولا أقول هنا بما اصطلح عليه مجازاً بـ "الأقليات"، على الرغم من تأييدي وحماستي لـ "إعلان حقوق الأقليات"¹، وأستخدم بدلاً عنه مصطلحاً آخر أراه أكثر دقة وعدلاً فيما يتعلق بمبادئ المساواة، ألا وهو "المجموعات الثقافية" بغض النظر عن عددها وحجمها، فمسيحي واحد يعادل جميع المسلمين الذين ينتسبون إلى دين آخر، ومسلم واحد يمكن أن يُعادل منتسبي جميع الأديان، لأنه يمثل ديناً في حين أن الآخرين يمثلون أدياناً أخرى، لذا يقتضي التعامل مع منتسبي جميع الأديان بصورة متساوية، كما يتطلب الأمر في الدولة العصرية القانونية وضع مسافة واحدة من منتسبي جميع الأديان والقوميات والهويات المختلفة على أساس المواطنة المتساوية والمتكافئة. أما مصطلح الأقليات فيمكن استخدامه في احتساب التصويت في البرلمانات أو النقابات أو الأحزاب أو المنظمات الدولية أو هيئات المجتمع المدني أو غيرها.

وبعد قراءتي لإعلان حقوق الأقليات كتبت رسالة إلى الأمين العام للأمم المتحدة بطرس غالي²، الذي جمعني به أكثر من مناسبة في القاهرة قبل اختياره أميناً عاماً، وكذلك بعد انتهاء خدماته، حيث فيها بحرارة مضمون الإعلان، إلا أنني استشكلت تسميته، فالأقلية تستبطن الخضوع والاستتباع والقبول بالأدنى باعتبارها "أقلية" من جهة، والتسيّد والهيمنة والاستعلاء بدواعي "الأغلبية" من جهة أخرى.

وفي العام 2022 وبمناسبة الذكرى الـ 30 لصدور الإعلان، وإثر جائحة كورونا، توقفت الأمم المتحدة مجدداً عند الإعلان باعتباره الصك الأهم فيما يتعلق بحقوق "الأقليات" (المجموعات الثقافية)، لاحتوائه على مبادئ توجيهية ومعايير أساسية تتراوح بين عدم التمييز من جهة، والمشاركة الفعالة للأقليات في صنع القرار، من جهة أخرى.

وأعود إلى السؤال الذي بدأت فيه لماذا كل هذا الجهد؟ وما هو موقع العلاقات الإسلامية - المسيحية تاريخياً بما لها وهو كثير، وما عليها وهو ليس بقليل؟³

1 اعتمدت الجمعية العامة للأمم المتحدة إعلان حقوق الأقليات بشأن الأشخاص المنتمين إلى أقليات قومية أو إثنية أو دينية أو لغوية بقرارها المرقم A.Res.47/135 والصادر في 18 كانون الأول / ديسمبر 1992. والإعلان مؤلف من 9 مواد إضافة إلى مقدمة، وجاء في المادة الأولى منه "على الدول أن تقوم كلّ في إقليمها بحماية وجود الأقليات وهويتها القومية أو الإثنية وهويتها الثقافية والدينية واللغوية وبتهيئة الظروف الكفيلة بتعزيز هذه الهوية...".

2 انتُخب الدكتور بطرس غالي أميناً عاماً للأمم المتحدة في العام 1991، وبدأت فترة ولايته من العام 1992 ولغاية العام 1996، ولم تُجدّد له ولاية ثانية بسبب ضغوط إسرائيلية وعدم رضا أمريكي.

3 روى لي سمير الحباشنة وزير الداخلية الأسبق في الأردن، أن شيخ مشايخ الكرك لا تكتمل مشيخته، إلا بعد نقلها بحضور أعلى مرتبة دينية مسيحية، حيث يقوم الشيخ الجديد بتأكيد حرمة الدم والعرض وحماية أبناء عشائر الكرك

وأجيب: إن انصرافي إلى البحث في إشكاليات الهوية هو بسبب المشكلات التي عانت منها مجتمعاتنا، إضافة إلى تفاقمها على نحو شديد في العديد من بلداننا قبل وبعد انفجارها على نحو صارخ إثر تحلل الأنظمة الشمولية في أوروبا الشرقية، فضلاً عن ذلك فهي موجودة كظاهرة على النطاق العالمي، لكنها لم تُدرس بما فيه الكفاية في بلداننا، ولم تُتخذ التدابير والإجراءات الدستورية والقانونية بشأنها، ناهيك عن نقص الثقافة الحقوقية عمومًا في مجتمعاتنا، والأمر يعود إلى التعصّب الذي أصبح مادةً كيميائيةً متفاعلةً وجاهزةً للتدمير، وقد عانت مجتمعاتنا من سمومها وانتشار فايروساتها، لاسيما في العقود الأربعة ونيف الأخيرة. والتعصّب حين يصبح سلوكًا ينتج التطرّف، وهذا الأخير يتحوّل إلى عنف باستهداف الضحية بذاتها ولذاتها، أما إذا ضرب عشوائيًا واستهدف إضعاف ثقة الدولة بنفسها وثقة المجتمع والفرد بالدولة، وكان عابرًا للحدود، فإنه يصير إرهاب دوليًا.

لعلّ تلك الأسباب هي التي دفعتني إلى الانشغال بموضوع الهويات منذ الثمانينيات والتفكير في أهمية توفير الأسس الضرورية لبناء مواطنة حيوية سليمة ومتكافئة ومتساوية، أساسها الحرية والمساواة والعدالة والمشاركة والمشاركة، بعد أن ساد نهج إقصاء الآخر وتهميشه والتكثّر للتعددية والتنوّع، بحكم فائض القوة في الممارسات السلطوية من جهة، وفي التغوّل من جانب القوى المتعصّبة والمتطرّفة مجتمعياً من جهة أخرى.¹

الأخوة الإنسانية

ونحن نتناول العلاقات الإسلامية - المسيحية وطموحات الوحدة والتنوير، ولاسيما ما عاناه مسيحيو المشرق العربي، فلا بدّ لنا أن نفرّد فقرة ضافية بشأن وثيقة "الأخوة الإنسانية من أجل السلام العالمي والعيش المشترك"²، التي جاء توقيعها تنوّجاً تاريخياً لمحاولات رأب الصدع من جهة بين المسيحيين والمسلمين ولتعظيم الجوامع وتقليص الفوارق واحترامها من جانب أكبر شخصيتين دينيتين مسلمة ومسيحية، حيث وقّع عليها شيخ الأزهر الشريف الدكتور أحمد الطيّب وقدااسة البابا فرنسيس في 4 شباط / فبراير 2019، وأبرمت في أبو ظبي (دولة الإمارات العربية المتحدة).

تُعتبر "وثيقة الأخوة الإنسانية" أول اتفاقية تعاهدية جامعة للمسلمين والمسيحيين في إطار من التكافؤ والمساواة والاعتراف بالآخر والاحترام المتبادل. وقد احتفل العالم لأول مرة باليوم العالمي للأخوة الإنسانية، بعد قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة في 22 ديسمبر / كانون الأول 2020 الاعتراف بها، واعتبار يوم 4 فبراير (شباط) يوماً عالمياً للأخوة الإنسانية.

(مسلمون ومسيحيون)، وذلك دليل احترام مبدأ العيش المشترك الإسلامي - المسيحي، واعتراف كلّ منهم بالآخر ومكانته ودينه وتعاليمه وشعائره وطقوسه. (الحديث مع الحباشنة كان يوم 6 أيار / مايو 2025، عشية انعقاد مؤتمر المسيحيون في المشرق العربي).

¹ أنظر: عبد الحسين شعبان - من هو العراقي؟، دار الكنوز الأدبية، بيروت، 2002. أنظر كذلك: كتابنا "النزاع العراقي - الإيراني، ملاحظات وآراء في ضوء القانون الدولي، دار الطريق الجديد، بيروت، 1981.

² أنظر: نص وثيقة الأخوة الإنسانية في موقع اللجنة العليا للأخوة الإنسانية. <https://www.forhumanfraternity.org>

والوثيقة هي نداء لكل ضمير حي ينبذ العنف البغيض والتطرف الأعمى، وهي "دعوة للمصالحة والتآخي بين جميع المؤمنين بالأديان، بل بين المؤمنين وغير المؤمنين، وكل الأشخاص ذوي الإرادة الصالحة"، كما جاء فيها، بما يعزز مبادئ التسامح والإخاء ويوحد القلوب ويسمو بالإنسان، فالهدف من توقيعه هو إعلاء شأن القيم الإنسانية القائمة على السلام والعدل والمشاركة الإنسانية.

وتأتي الوثيقة بعد القلق الواسع الذي ساد في الأوساط الغربية، وبشكل خاص بعد أحداث 11 أيلول / سبتمبر الإرهابية الإجرامية التي حصلت في الولايات المتحدة الأمريكية، والتي قادت إلى ارتفاع موجة العداء للإسلام باعتباره ديناً يحض على الإرهاب ويغذي العنف.

وهكذا سادت في الغرب فكرة ما أطلق عليه الإسلاموفوبيا Islamophobia ، أي "الرهاب من الإسلام"، خصوصاً في ظل صعود التيار الشعبوي ووصوله إلى العديد من الحكومات الغربية، فضلاً عن وجوده المؤثر خارجها أيضاً، وهذا التيار كان الأكثر عنصريةً وعداءً للأجانب Xenophobia ، وبشكل خاص للأجانب العرب والمسلمين .

وقد استخدم الغرب تاريخياً ذريعة "الأقليات" وحقوقها للتدخل في شؤون بلداننا منذ أيام الدولة العثمانية، ولاسيما في مراحل ضعفها وتفككها، ولاحقاً بحجة مكافحة الإرهاب والحفاظ على السلم والأمن الدوليين، وتالياً بزعم نشر الديمقراطية واحترام حقوق الإنسان.

وبالمقابل فثمة قصور نظر وإرادوية تتم عن عدم تقدير إزاء قضايا التنوع والتعددية والاعتراف بالآخر، والأمر لا يتعلق بالحكومات والقوانين والأنظمة فحسب، بل في الثقافة السائدة في مجتمعاتنا أيضاً، والتي تنتقص من الآخر، ونقول ذلك انطلاقاً من مبدأ النقد والنقد الذاتي والمكاشفة والمصارحة وتشخيص النواقص والثغرات والأخطاء والعيوب، فمجتمعات المشرق والبلدان العربية والإسلامية بشكل عام، لم تكن بعيدة هي الأخرى عن الاستعلاء والاستقواء على الآخر، تارةً باسم "دين الأغلبية"، وأخرى باسم "قومية الأغلبية"، إضافة إلى عناوين وذرائع أخرى كلها تنطلق من السعي لفرض الهيمنة والتسلط، في نظرة فوقية وإستصغارية للجوامع والمشاركات، التي كانت تنتظم تحت لوائها الهويات المختلفة، ناهيك عن الروابط الإنسانية التي شكّلت أساساً لوحدة وطنية وهويات مؤتلفة وموحدة في إطار الدولة، بما فيها من تنوع وتعددية واختلافات وتباينات واعتراف بالآخر واحترام خصوصيته.

أما على المستوى الخارجي، فقد سادت لدينا موجات عداء للغرب كرد فعل لسياسته الاستعمارية الاستعلائية، وتم النظر إليه باعتباره عنصرياً يريد نهب ثروات بلادنا واستلاب خيراتها، وهو ما نطلق عليه Westophobia، وتأثرت بتلك الموجة المعادية للغرب أوساط عديدة دون أن تفرّق بين الغرب السياسي الذي يقوم على فلسفات وأيديولوجيات تخدم مصالحه في تطويع شعوبنا واستغلالها، وبين الغرب الثقافي الذي وقف إلى جانب قضايانا العادلة، ومنها "قضية فلسطين"، ومثالي على ذلك تضامن العديد من القوى والجهات ضدّ حكوماته الغربية، وخصوصاً الحركة الطلابية والشبابية الناشطة في الجامعات الأمريكية والأوروبية في حرب الإبادة التي شنتها إسرائيل على غزة. وموضوعياً وبغض النظر عن

مشاريعه الإمبريالية في الهيمنة والتسيّد، إلّا أنه يمكن القول أن الغرب يمثل اليوم مشروع الحضارة البشرية بما تمثّله من عمران وجمال وفنون وآداب وعلوم وتكنولوجيا، وصولاً إلى الثورة الصناعية في طورها الرابع، وهي تكثيف لما أنجزته البشرية لقرون من الزمن.

وكان لفشل الأيديولوجيات القومية واليسارية، وسياساتها السلطوية الشمولية، ونهجها الواحدى والإطلاقي سبباً في ارتفاع منسوب الهويّات الفرعية المطالبة بحقوقها، وخصوصاً بعد تحلّل المنظومة الاشتراكية في أوروبا الشرقية وانحيار الاتحاد السوفيتي، وانفجار صراعات بين مجموعات ثقافية، وقيام دول وكيانات على أنقاضها، الأمر الذي انعكس على مجتمعات الشرق وفسيفسائه الملونة وموزائيكه المتنوّع تاريخياً، دون أن يعني ذلك أن المجموعات الثقافية الأخرى غير العربية وغير الإسلامية لم تعان من سلبات واستلاب، ولاسيّما في القرن الماضي وبعد قيام الدول الوطنية.

وبالعودة إلى التاريخ، وعلى الرغم من إقرارنا بوجود التمييز والاضطهاد بحق المسيحيين والمجموعات الثقافية الأخرى، فإنه يمكن القول أن مجتمعات الشرق كانت أكثر انسجاماً من غيرها في احتضان المجاميع الثقافية، التي تُعتبر مصدر غنى وإثراء، وذلك ضمن فهم تلك الأيام للعلاقات في إطار الدولة العربية - الإسلامية، التي ساهم المسيحيون والقوميات الأخرى، إلى جانب المسلمين والعرب، بدور كبير في تشييد حضارتها وتطويرها، في ظلّ تعايش مثل الحد الأدنى من الحقوق، فقد حافظ المسيحيون على ديانتهم وكنائسهم وصلبانهم وحياتهم وممتلكاتهم؛ وحسبي هنا استنكار "العهد العُمري"¹ عند فتح القدس العام 15هـ، وقبلها "دستور المدينة"².

وعلى الرغم من وجود هذه النصوص ذات الطبيعة شبه القانونية، إضافة إلى مرجعية القرآن الكريم الذي احتوى على منظومة قيمية إنسانية، فإن هناك ما يزال يتحدّث عن "دار الحرب" و"دار السلام" أو "دار الكفر" و"دار الإيمان"، تلك التي عبّرت عن مواقف معيّنة هي إبنة عصرها ووليدة زمنها، ولا يُمكن تعميمها، إلّا أن القوى الإرهابية الإسلامية تحاول نبش بعض النصوص التاريخية وتتعلّكز

1 العهد العُمري هي عهد من الخليفة الثاني الفاروق عمر بن الخطاب منحه إلى المطران صفرينيوس، بضمان حق المسيحيين في القدس في ممارسة شعائرهم وطقوسهم وحماية أرواحهم وأعراضهم وممتلكاتهم، وعندما حان موعد الصلاة، رفض الخليفة عمر الصلاة في كنيسة القيامة كي لا يُقال إنها أرض إسلامية، وقام وصلى إلى جوارها، حيث تمّ بناء جامع سمّي بجامع عمر بن الخطاب، وأقدم الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز على توسعته، وما زال قائماً إلى اليوم.

2 يعتبر دستور المدينة أول دستور مدني مكتوب في التاريخ الإسلامي، وهو تعاقد بين سكان يثرب من الأنصار والمهاجرين لتنظيم شؤون الحياة فيها، أعدّه النبي محمد (ص) مع غير المسلمين من سكانها، وقد احتوى على 52 مادة، 25 منها لتنظيم حياة المسلمين و27 لتنظيم العلاقة مع اليهود والوثنيين. وهو إقرار بالتعددية والمساواة في ظروف السلم وبقاعدة المناصرة في ظروف الحرب، قائم على المشترك الإنساني والبر والنصيحة ورفض الإثم. وقد نصّ دستور المدينة على: أنهم مؤمنون ومسلمون من قريش وأهل يثرب ومن تبعهم ولحق بهم وجاهد معهم "أمة واحدة من دون الناس"، وكان النبي محمد قد أعطى هذا لمسيحيي نجران بحمايتهم والبقاء على هويّتهم الدينية. انظر: عبد الحسين شعبان- فقه التسامح في الفكر العربي - الإسلامي: الثقافة والدولة، دار النهار، بيروت، 2005 ، وط2، 2024.

عليها وتعتمدها منهجاً في العلاقة مع الآخر، وكأن الزمن توقّف والتاريخ تجمّد عند حدود معيّنة لا يريد مغادرتها.¹

وألفت النظر هنا إلى ما ذهب إليه الدكتور فواز جرجس في كتابه القيم "داعش إلى أين؟ - جهاد ما بعد القاعدة"²، الذي يعتبر القاعدة وداعش كلاهما ينتميان إلى العائلة نفسها التي يطلق عليها "السلفية الجهادية"، ويتشاركان الأفكار الرئيسية نفسها ويجملها باليوتوبيا الإسلامية، وملخصها استبدال "حكم الدولة" بـ "حكم الله"، ويحدد الفارق بينهما، فالقاعدة تنظيم سري عابر للحدود، في حين انغمس داعش في الجماعات السنية المحلية وعمل داخل إطار مفهوم الدولة، أي أنه متجذر في الانقسام الشيعي - السني، وينحت جرجس لتوصيف الحالة مصطلحاً عميق الدلالة وهو "الجيوثقافية" كتعبير عن التنافس الإقليمي، فداعش ليس مجرد تنظيم إرهابي متمرد، وإنما هو أقرب إلى كيان دولة "خلافة" ولهذا قام بتمزيق الحدود "الاستعمارية" التي تشكلت وفقاً لاتفاقية سايكس - بيكو العام 1916 وفي أعقاب انحلال الدولة العثمانية.

وكان بودي لو استخدم جرجس مصطلح "القوى الإرهابية" بدلاً من "الجهادية" و"الإرهابيون" بدلاً من "الجهاديين"، و"الإسلاميون" بدلاً من "الإسلاميين"، (خصوصاً وأن الإسلامولوجيا تعني استخدام التعاليم الإسلامية بالضد من الإسلام).

المسيحيون ملح الشرق

لم يكن المسيحيون إذن مواطنين فائضين عن الحاجة في مجتمعاتنا أو أغريباً، بل هم عنصر أساسي ولهم وجودهم المؤثر قبل الإسلام أيضاً، وأنهم أهل هذه البلاد، ولهذا السبب اخترت عنواناً لكتابي "المسيحيون ملح العرب"³ بعد أن تعرّضوا إلى استهدافات منظّمة من جانب إسلاميين وجماعات إرهابية لا تعترف بالآخر، وتنكر عليه أبسط حقوقه في الوجود، واحترام هويته وخصوصيته وحقه في الاعتقاد.

وعنوان الكتاب مستوحى من كلام السيّد المسيح (ع)، الذي خاطب به تلامذته وأتباعه بقوله "أنتم ملح الأرض..."، وأقول اليوم "المسيحيون ملح الشرق"، فقد كان السيّد المسيح شرقانياً، وولد في الشرق في بيت لحم (فلسطين)، وبميلاده ابتدأ التقويم الميلادي، ومن الشرق انتشرت المسيحية في أصقاع

¹ يستند تنظيم داعش في أطروحته الفكرية التكفيرية تلك على سورة المائدة، الآية 44، "ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون".
انظر: الناجي أبو بكر، إدارة التوحش، دار التمرد - درر الكتب، سوريا، 2007.

² أنظر: فواز جرجس - داعش إلى أين؟ جهاد ما بعد القاعدة، مركز دراسات الوحدة العربية، ط2، بيروت، 2016، (ص 201 - 202).

³ أنظر: عبد الحسين شعبان - المسيحيون ملح العرب، دار ضفاف، الشارقة، 2013، وهو استكمال لكتاب كنت قد أصدرته بعنوان: المسيحيون والربيع العربي، دار آراس، إربيل، 2012. قارن كذلك محاضرتنا في عينكاوه في النادي الأكاديمي - الاجتماعي (30 أيار / مايو 2022). قارن كذلك: كتابنا "دين العقل وفقه الواقع - مناظرات مع الفقيه السيد أحمد الحسني البغدادي"، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2021.

المعمورة، مثلما الإسلام شرقاني أيضًا، فقد وُلد النبي محمد (ص) في مكة المكرمة، ومنها انطلقت الدعوة الإسلامية إلى العالم كافة.

وكان عنوان كتابي الآخر "أغصان الكرمة" وهو مستمد من عبارة استخدمها السيد المسيح مخاطبًا مريديه "أنتم أغصان الكرمة..."، ومثل هذا التعبير له دلالة بالحديث عن المسيحيين العرب المتجنزين في أرضهم ووطنهم، على الرغم من الشدائد والأهوال التي تعرّضوا لها في السابق، وما يتعرّضون له في الوقت الحاضر.

لقد ورد في القرآن الكريم أن السيد المسيح هو "روح القدس" و "قول الحق"، فكيف يتم جرّ رقاب أتباعه اليوم باسم الإسلام؟ وكيف يعدّ المسيحيون كفارًا؟ كما يذهب إلى ذلك بعض المتطرفين، استنادًا إلى فتاوى لا يربطها رابط بالإسلام الحقيقي وبمبادئ المواطنة في الدولة العصرية.

ظلّ الوجود المسيحي مواكبًا للوجود الإسلامي بعد مجيء الإسلام، حيث شعر المسيحيون أن المسلمين يمكن أن يكونوا مُعينين لهم من الاضطهاد الروماني، قبل أن "تنتصر" الإمبراطورية الرومانية، وبعد تنصّرها اضطهدت من لم تتمكّن من إلحاقه بخدمتها¹، وتلك إحدى مفارقات التعصّب.

إذن، المسيحيون ليسوا طارئین أو دخلاء، بل هم أبناء هذه المنطقة، قبل وبعد مجيء الإسلام إليها، فقد كانوا منذ الدعوة المحمدية والحضور الإسلامي وإلى اليوم جزءًا فاعلاً من النسيج الاجتماعي العربي، على الرغم مما تعرّضوا له تاريخياً من أذى، وما لحق بهم من غبن وأضرار، لكن ما يقع عليهم هذه الأيام، فاق الاضطهاد المزمّن والمعتق الذي واجهوه، الأمر الذي وجدوا أنفسهم، وعلى حين غرة وبعد قرون من "العيش المشترك" والتفاعل الحضاري والتواصل الثقافي، حتى وإن كان بمنغصات وشعور بالتمييز أحياناً، وكأنهم "أجانب" أو "ضيوف غير مرحّب بهم" أو حتى "غير مرغوب فيهم" أو "مكروه وجودهم"، حيث جرى التشكيك بوطنيتهم وولائهم، وذهب البعض إلى اعتبارهم "طابوراً خامساً". وهو ما حاول الغرب اللعب عليه، تحت زعم الدفاع عنهم، ومنذ قرنين ونيف من الزمان حاول إيجاد ركانز له في منطقتنا تحت عناوين الدفاع عن الأقليات، وهو ما واجه به الدولة العثمانية، وبلور ذلك لاحقاً تحت عنوان "صراع الحضارات"².

1 قارن: المسيحيون العرب، الدور والحضور- مجلة معلومات، جزآن، العدد 45 (ج1)، آب (أغسطس) 2007، المقدمة، ص 7.

2 عشية انهيار الكتلة الاشتراكية في نهاية الثمانينيات ويُعيدّها، بلور فرانسيس فوكوياما في مقالة له فكرة "نهاية التاريخ" بظفر الليبرالية على الصعيد العالمي، وأصدر كتاباً بعنوان "نهاية التاريخ والإنسان الأخير"، ثم راجت في التسعينيات نظرية "صدام الحضارات" التي دعا إليها صموئيل هنتنغتون، واستهدفت بشكل خاص الهوية الحضارية للمنطقة، وذلك تحت عناوين ثلاثة:

أولها - تبرئة الغرب الإمبريالي من مسؤولية تفكيك العالم العربي من خلال اتفاقية سايكس - بيكو؛
وثانيها - محاولة إصاق أعمال الإرهاب الدولي بالإسلام والمسلمين، واتخاذ ما قامت وتقوم به الجماعات الإسلامية الإرهابية ذريعة لذلك، علماً بأن ضرر هذه الأخيرة على سكان المنطقة أكثر من ضررها على الغرب ذاته، دون نسيان خطوط بعضها المتصلة معه؛

عندما نقول أن المسيحية هي بنت المنطقة العربية، فإننا نعني أيضًا أن الثقافة المسيحية منذ ألف عام ونيّف، كُتبت بالعربية، والأمر لا يقتصر على فرقة أو مذهب أو طائفة، بل إن المسيحية بجميع توجهاتها وألوانها اختارت ذلك، وهو ما يذكره المطران جورج خضر، استناداً إلى كتاب لباحث ألماني وصدر بالألمانية اسمه " غراف" وعنوانه " تاريخ الأدب المسيحي العربي"، ويورد فيه أسماء الكتب المسيحية التي وضعت باللغة العربية، عند الأقباط والسريان والنساطرة والروم والموارنة، علماً بأن المسيحية نطقت بالعربية قبل الإسلام مثلما هي بعده ¹.

لذلك لا يمكن تصوّر موطن السيد المسيح ومسقط رأسه " فلسطين"، إضافة إلى العالم العربي، بلا مسيحيين، وسيكون الأمر كارثة إنسانية وحضارية ومدنية، إذا ما حصل ذلك بسبب ارتفاع معدلات الهجرة وارتفاع موجة التكفير والإرهاب والاضطهاد ضدهم، خصوصاً الحملة الإسلامية - الصهيونية عليهم.

لا شك إن الحضور المسيحي تراجع كثيراً وضعف تأثيره الإيجابي الذي تركه على المجتمعات العربية، وسيكون أضعف إذا استمرت الحملة الإجلائية لوجودهم على ذات الوتيرة أو ارتفعت مناسبتها، فقد يأتي اليوم الذي لا نجد فيه غير كهان في أديرة معزولة وقسيسين في كنائس فارغة. ²

وإذا كانت المسيحية قبيل الحرب العالمية الأولى وبُعديها قد انتعشت في بلدان المشرق العربي، وكان روادها أول من دعا للاستقلال الكامل في إطار مشروع تنوير وحداثة، لاسيّما عشية انهيار الدولة العثمانية وبُعديها، إلّا أنها أصيبت بالانكماش والانكفاء، بفعل عوامل عديدة منها، عدم الإقرار بالمساواة والمواطنة المتكافئة، سواء على المستوى القانوني (الدستوري) أو الاجتماعي، إضافة إلى تنامي "الأصوليات" الإسلامية والتوجهات المتعصّبة في العقود الأربعة ونيّف الماضية، والأمر لا يقتصر على

وثالثها - العمل على تفرغ المنطقة من المسيحيين، وذلك بفعل استهدافهم من جانب جماعات إسلاموية، وإظهار الإسلام كدين يتعارض مع الحداثة والمدنية والتقدم، بل دين يحضّ على العنف والإرهاب وليس بإمكانه التعايش مع غيره من الأديان، وهو ما كانت "إسرائيل" تعزف على وتره منذ قيامها ولحد الآن، مبررة عدوانها على الأمة العربية بزعم أنها محاطة بالإسلام والمسلمين الذين يريدون القضاء عليها، وذلك لإخفاء الدوافع الحقيقية لعدوانها من جهة ولمشروعها الاستعماري الاستيطاني الإجلائي من جهة أخرى.

قارن: Faukuyama, Francis: The End of History and The Last Man. Free Press, 1992.

قارن: Huntington, Samuel P. The Clash of Civilization and The Remaking of World Order. Simon and Schuster, 2011.

قارن: جورج حداد - جريدة الأخبار، 2013/3/2، مجلة معلومات، (ج-2) العدد 134، كانون الثاني (يناير) 2015.

¹ انظر: جورج خضر (المطران) - المسيحية العربية والغرب، مجلة معلومات، ج1، مصدر سابق، ص 16-18.

قارن كذلك: جورج خضر (المطران)، مقدمة كتابنا فقه التسامح في الفكر العربي - الإسلامي: الثقافة والدولة، مصدر سابق.

² يمكن مراجعة كتابنا " أغصان الكرامة - المسيحيون العرب، مركز حمورابي، بغداد / بيروت، 2015. الذي فيه تفصيلات عن هجرة المسيحيين الاضطهادية من البلدان العربية، إضافة إلى هجرتهم من "إسرائيل"، فبعد أن كان يبلغ عددهم نحو 20% من سكان فلسطين، فإن عددهم اليوم لا يزيد عن 1.5%، ويكفي أن نذكر هنا أن عدد المسيحيين في القدس قبل الاحتلال كان يزيد عن 50 ألف نسمة، أما اليوم فإن عددهم لا يتجاوز 5 آلاف.

البلدان العربية، بل شمل بلداناً إسلامية أو أن المسلمين يشكلون غالبية سكانها مثل باكستان وإندونيسيا وماليزيا وأفغانستان وغيرها¹.

مسيحيو المشرق العربي

استُهدف المسيحيون في العديد من بلدان المشرق العربي، في ظلّ إجراءات وقرارات دفعت أواسط واسعة منهم إلى الهجرة، ناهيك عن قوانين وممارسات ضاعفت من مخاوفهم، وامتد الأمر ليشمل حياتهم ومقدساتهم وحقوقهم في ممارسة طقوسهم وبناء كنائسهم وتشبيدها، بل أخذ وجودهم يترنّح في بعض الأحيان، ففي السودان مثلاً جرت محاولات منذ عهد الرئيس جعفر النميري (أواسط الثمانينيات) لفرض الشريعة الإسلامية، واستمر التمييز منذ تأسيس السودان الحديث ونيله الاستقلال في العام 1956 وصولاً إلى الانشطار بعد إجراء استفتاء صوّت فيه الجنوبيون لصالح الانفصال بنسبة زادت على 98% وذلك على خلفية ممارسات اجتماعية وثقافية دينية وعنصرية ضدهم².

والى حدود معينة تعرّضت عدد من الكنائس إلى التقييد في مصر خلال حكم الرئيس السابق محمد حسني مبارك وما بعده، وفي ظل موجة الربيع العربي وما أعقبها من حكم "الإخوان المسلمين" وتنامي التيار السلفي، حيث تعرّض الوجود المسيحي إلى الاستهداف، كما حصل في "الصعيد" و"الإسكندرية" و"القاهرة"، ولا تزال نتائج التحقيقات بشأن الارتكابات الجسيمة التي تعرّضوا لها غامضة ولم تشهد محاكمات للمرتكبين وكشف الحقيقة³.

أما في سوريا فقد تعاظمت معاناة المسيحيين وقلقهم منذ اندلاع حركة الاحتجاج الواسعة في 15 آذار (مارس) العام 2011، التي بدأ خطها البياني بالارتفاع، سواءً على الصعيد العام أم على الصعيد الفردي، وصولاً إلى الإطاحة بالنظام بعد فرار رئيسه بشار الأسد. وقد تحوّل القلق المسيحي مع مرور الأيام إلى خوف حقيقي، لاسيّما بعد السيطرة على مدينة بئرود التي فرض فيها المسلحون على المسيحيين دفع الجزية تحت عنوان الأتاوة، وبعدها تم استهداف كنيسة "السيدة" و"قسطنطين وهيلانة"،

1 يكفي أن نذكر بعض الإجراءات التي قامت بها هذه البلدان في السنوات الأخيرة، ففي باكستان وعلى الرغم من الصراع السني - الشيعي، فإن الحكومة أوقفت في ولاية لاهور تدريس الثقافة المسيحية بحجة استغلال المدرسين المسيحيين المناسبة للتبشير. أما في إندونيسيا فقد فرضت الحكومة الشريعة الإسلامية على المسيحيين من أبناء ولاية أتشيه التي ضربها التسونامي في 26 كانون الأول (ديسمبر) 2004. أما في ماليزيا فقد تم منع المسيحيين من استخدام كلمة الله، بحجة أن الكلمة خاصة بالمسلمين، وذلك بقرار من المحكمة العليا. وفي أفغانستان التي لا يوجد فيها كنيسة واحدة، فقد تم اغتيال عدد من العاملين الاجتماعيين بحجة أنهم مسيحيون ويبدون دينهم.

انظر: محمد السماك - ثمن الاعتداء على مسيحي الشرق، جريدة المستقبل، 2014/7/28.

2 - انظر: عبد الحسين شعبان - ما بعد كركوك: هل جنوب السودان نموذج؟ صحيفة السفير "اللبنانية"، العدد 11968، 2011/8/22. ومقالتنا الموسومة: الاستفتاء السوداني والمقاربة الكردية، صحيفة الخليج "الاماراتية"، الاربعاء 2010/10/27.

3 راجع مقالتنا الموسومة: إمبابة وأخواتها، صحيفة الخليج "الاماراتية"، الاربعاء 2011/5/25.

وحصل الأمر كذلك في حلب وحمص، حيث تم تدمير العديد من الكنائس، الأمر الذي اضطر أكثر من نصف المسيحيين إلى الفرار، نازحين إلى محافظات أخرى أو مهاجرين إلى الخارج.

وكان لحادثة اختطاف المطرانين بولس يازجي ويوحنا ابراهيم في 22 نيسان (ابريل) العام 2013¹ تأثير كبير على معنويات مسيحيي حلب، وكذلك اختطاف الراهب فرانسوا مراد وقطع رأسه بعد السيف من قبل جماعة أبو البنات الشيشانية، مثلما كان حادثاً مرعباً اقتحام مدينة معلولا التي نزح معظم أهاليها وتم تدمير وتخريب العديد من كنائسها وترافق ذلك مع خطف الراهبات واستمرار معاناتهن لعدة شهور، بل إن تنظيم داعش فرض الجزية على مسيحيي الرقة².

وفي لبنان وخلال الحرب الأهلية وما بعدها 1975-1990 كان الاستهداف جلياً، وقد تركت تلك الحرب ندوباً في الذاكرة لا تزال غير مندملة، حيث شهد لبنان أعمال قتل واختطاف وتهجير وإجلاء ومصادرات، واضطر عشرات الآلاف منهم إلى الهجرة، وإن كانت الحرب مجنونة وشملت الجميع، لكن الخسارة المسيحية كانت كبيرة جداً.

ولم يكن اتفاق الطائف (1989)³ سوى حلاً مؤقتاً لإنهاء الحرب الأهلية (1975 - 1989)، لكن ذيولها استمرت تحت عناوين مختلفة، وحتى ما ورد فيه من معالجات لم يتم تنفيذها إلا بقدر حماية المحاصصة والتقاسم الوظيفي.

أما في العراق فقد كان داعش بالمرصاد للمسيحيين، خصوصاً في الموصل وسهل نينوى والمناطق المسيحية في شمال العراق، حيث اضطروا إلى ترك بلداتهم وبيوتهم وفرّوا في جنح الظلام لينجوا بأنفسهم، وتركوا كل ممتلكاتهم، وحتى ما حملوه من مدّخرات وأشياء ثمينة تم سلبه ومصادرته في الكثير من الأحيان، في مشهد درامي من أكثر المشاهد اللاإنسانية.

¹ جمعتني صداقة مع المطران يوحنا ابراهيم، والتقيته في الشام وحلب وعمّان وبيروت، كما تزامننا أعضاء في منتدى الفكر العربي في عمان، الذي يرأسه سمو الأمير حسن بن طلال. وقد حضرنا مناسبتين مهمتين قبل اختطافه بوقت قصير: الأولى كانت في عمان بدعوة من وزير خارجية الأردن الأسبق كامل أبو جابر، بهدف مناقشة ما الذي يمكن عمله لمواجهة التحديات التي تستهدف المسيحيين؟ والثانية كأعضاء مؤسسين في ملتقى الأديان والثقافات للحوار والتنمية في بيروت، الذي كنت قد كتبت نظامه الأساسي، وترأسه السيّد علي فضل الله، واختير الشيخ حسين شحادة أميناً عاماً له، وأعلن عن قيامه رسمياً في 1 تشرين الثاني (نوفمبر) 2013، بعد حوارات استمرت لنحو عام كامل وضمّ باقة من أطراف المجتمع اللبناني والعربي متدينين وعلمانيين، واقترح عليّ المطران ابراهيم إصدار كتاب مشترك بيني وبينه، فرحبت بذلك، واتفقنا أن يكتب هو عن الإسلام وأن أكتب أنا عن المسيحية، لكن ذلك لم يحصل بسبب اختفائه القسري، الذي ظلّ لغزاً حتى الآن، ولم يُجلّ مصيره حتى بعد الإطاحة بالنظام السوري السابق.

² انظر: عبد الله سليمان علي- جريدة السفير 2014/7/25، مجلة معلومات، ج2، مصدر سابق، ص 60-61. وقد تعرّض مسيحيو الحسكة على أيدي تنظيم داعش الإرهابي، إلى انتهاكات جسيمة، وتطهير لنحو 25 قرية إضافة إلى اختطاف أكثر من 100 مواطناً.

³ اتفاق الطائف هو الاسم الذي تعرف به وثيقة الوفاق الوطني اللبناني التي وضعت بين الأطراف المتنازعة في لبنان وذلك بوساطة سورية - سعودية في 30 أيلول / سبتمبر 1989 في مدينة الطائف وأقره لبنان بقانون بتاريخ 22 تشرين الأول / أكتوبر 1989 منهيّاً الحرب الأهلية اللبنانية، وذلك بعد أكثر من خمسة عشر عاماً على اندلاعها.

وكان الاستهداف الأكبر للمسيحيين بعد احتلال داعش للموصل في 10 حزيران / يونيو 2014، حيث خيروا بين اعتناق الإسلام أو دفع الجزية وإلا فإن الموت ينتظرهم، وترافق ذلك مع تدمير كنائسهم مثل كنيسة السيدة العذراء والكنيسة الطاهرة وكنيسة ماركوركاس ودير مار إيليا، وغير ذلك من دور العبادة المسيحية، إضافة إلى تدمير الآثار كالثور المجنح وتمثال بوابة نركال وقصر آشور ناصر بال في كالح، ولفت ذلك أنظار الرأي العام إلى خطورة ما قامت به داعش، فضلاً عن استهدافها لجوامع ومساجد مهمة مثل مسجدي النبي يونس والنبي شيث وجامع النوري ومنارته الحدياء الشهيرة، وهو ما دفع بالمجتمع الدولي لإصدار 4 قرارات من مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة ضدّ داعش.¹

وقبل ذلك تعرّض المسيحيون لعمليات ترويع وإرهاب، كما حدث لهم في البصرة وبغداد وكركوك والموصل²، وقد مرّت الهجرة المسيحية الكبرى بأربعة مراحل هي:

الأولى - خلال الحرب العراقية - الإيرانية (1980 - 1988)، حيث ارتفعت مناسيب الهجرة المسيحية؛

الثانية - خلال فترة الحصار الدولي (1990 - 2003)؛

الثالثة - ما بعد الاحتلال الأمريكي للعراق (2003)، وخصوصاً بصعود الموجة الإسلامية الطائفية؛ والرابعة - وهي الأكبر خلال احتلال داعش للموصل (2014) وتمدها إلى سهل نينوى ونحو ثلث الأراضي العراقية.

ولأسف لم ترتفع أصوات إسلامية ومدنية وعلمانية كافية لإدانة تلك الأعمال الإجرامية، ولوضع حد لاضطهاد المسيحيين وتهجيرهم، إضافة إلى استهداف المجموعات الثقافية الأخرى، دينية أو إثنية أو لغوية أو سلالية على أساس الهوية الفرعية مثل الإيزيديين والصابئة المندائيين وغيرهم، ولم تدرك الكثير من الأوساط فداحة تفريغ المنطقة من المسيحيين، في ظلّ انشغالها بالفتنة الطائفية - المذهبية التي

¹ القرارات هي:

الأول - رقم 2170 وصدر في 15 أغسطس (آب) 2014 بشأن التهديدات التي يتعرّض لها السلم والأمن الدوليين نتيجة الأعمال الإرهابية وفيه إدانة للفكر المتطرّف وتنديد بتجنيد المقاتلين الأجانب.
الثاني - رقم 2178 الصادر في 24 سبتمبر (أيلول) 2014 وفيه أيضاً إدانة للتطرّف والعنف والإرهاب، ويستعيد القرار 1373 (الصادر في 28 أيلول / سبتمبر 2001 بعد أحداث 11 أيلول / سبتمبر الإرهابية الإجرامية).
الثالث - رقم 2185 والذي صدر في 20 نوفمبر (تشرين الثاني) 2014، والذي أكّد على دور الشرطة كجزء من عمليات الأمم المتحدة لرفع درجة المهنية لمحاربة التطرّف والإرهاب.
الرابع - رقم 2195 في 19 ديسمبر (كانون الأول) 2014 والذي حثّ الدول على العمل الجماعي والتصديق على الاتفاقيات الدولية ذات الصلة وشدّد على العلاقة بين مكافحة الإرهاب والتطرّف المقترن بالعنف.
أنظر محاضرتنا الموسومة "الأمن التعليمي وتحديات التعصّب والتطرّف - مقاربات سوسيوثقافية وحقوقية" بدعوة من كرسي اليونيسكو - جامعة الموصل في شباط / فبراير 2024.

² انظر: عبد الحسين شعبان - هل أصبحت أم الربيعين رهينة المحبس؟، مجلة حمورابي للبحوث والدراسات الاستراتيجية، العدد الذي يحمل الرقم 10، تموز (يوليو) 2014 ولكن صدورها الفعلي هو في كانون الأول (ديسمبر) 2014.

تضرب المنطقة بالصميم، فيما يسمى بالصراع السني - الشيعي، الذي لا يخلو من تداخلات خارجية دولية وإقليمية.¹

الوجود اليهودي

الشيء بالشيء يُذكر كما يُقال، وهنا نريد استعادة الخسارة الفادحة للوجود اليهودي العربي التي كانت كبيرة جداً، ومؤثرة جداً، ولم يدرك الكثيرون أبعادها حينها، بل إن بعضهم لا يزال غير مدرك لتأثيراتها السلبية على طبيعة الصراع في المنطقة، حيث ساهمت عملية تهجير اليهود العرب إلى "إسرائيل" في دعمها بالعنصر البشري التي هي بحاجة إليه، ربما أكثر من العناصر الأخرى، والحجة كانت أن كل يهودي يمكن أن يكون "طابوراً خامساً" أو حتى "صهيونياً" أو مؤيداً "لإسرائيل"، مثلما ترفع الموجة التكفيرية شعارات من شأنها اعتبار كل مسيحي موالياً للغرب أو إنه يمكن أن يكون عضواً في خلية نائمة، وبتقديري إن إفراغ المنطقة من المسيحيين ومن المسيحية المشرقية هو الوجه الآخر من دعم المشروع الصهيوني.²

وحسب وجهة النظر "الإسرائيلية" فإن الصراع بناءً على هذه المعادلة سيصبح بين "أقلية يهودية" لا يزيد عددها عن بضعة ملايين من اليهود على النطاق العالمي، و"أغلبية مسلمة" قوامها يزيد عن مليار ونصف المليار نسمة. وإذا كان العرب والمسلمون لا يتحملون وجود مسيحيين بين ظهرانيهم، قسم كبير منهم من أصول عربية، فكيف سيتحملون وجود يهود؟ وهو الأمر الذي سعت "إسرائيل" بكل وسائل دعايتها وحربها النفسية لإبرازه.

وتحاول إسرائيل إظهار الصراع العربي - الإسرائيلي باعتباره صراعاً دينياً إلغائياً تتاحرياً، ولا يمكن إيجاد حلّ له إلاّ بقضاء أحدهم على الآخر، وهو ما اشتغلت عليه الدعاية الإسرائيلية على نحو ناعم لاستمالة الرأي العام الغربي، زاعمة أنها واحة للديمقراطية وسط أعداء متوحشين يريدون تدميرها، وأن اليهود ضحايا الغلبة "المسلمة" مقابل "الأقلية" اليهودية.

ولعلّ تصرّف داعش وسلوكها ضد المسيحيين بشكل خاص والمجموعات الثقافية الأخرى بشكل عام يعطي مثل هذا الانطباع الذي تريده "إسرائيل"، بل يصبّ في صلب دعايتها، على الرغم من أن ما حصل بعد 7 أكتوبر / تشرين الأول 2023 من تدمير ممنهج لقطاع غزة وحرب إبادة معلنة بحق أهلها

1 أنظر: مشروع قانون تحريم الطائفية وتعزيز المواطنة، الذي كُنّا قد رَوّجنا له في ثمانينيات القرن المنصرم، وخلال الحرب العراقية - الإيرانية، وأعدنا صياغات جديدة له بعد الاحتلال الأمريكي في العام 2003. أنظر: نص المشروع منشور في كتابنا "جدل الهويات في العراق - الدولة والمواطنة"، الدار العربية للعلوم، بيروت، 2010.

2 أنظر كتابنا: من هو العراقي؟ دار الكنوز الأدبية، بيروت، 2002. وقد أجرينا فيه حواراً مطولاً مع الباحث العراقي اليهودي مير بصري الذي كان حتى السبعينيات رئيس الطائفة الموسوية في العراق، كما نشرنا القرار رقم (1) لعام 1950 والذي تم فيه إسقاط الجنسية عن اليهود. وكان عدد اليهود العراقيين حينها يقدر بنحو 125 ألف يهودي، وقد لعبوا دوراً مهماً في تاريخ الحركة الثقافية والفكرية والأدبية والتجارية العراقية والعربية. قارن كتابنا: عصبة مكافحة الصهيونية ونقض الرواية الإسرائيلية، دار البيان العربي، بيروت، 2023.

وقتل عشرات الآلاف بدم بارد، فضلاً عن حرمانهم من أبسط حقوق العيش كالماء والغذاء والدواء والوقود، قد كشف حقيقة السياسة الإسرائيلية وبدأت أوساط واسعة من الرأي العام العالمي تتلمس زيف تلك المزاعم، بل لا إنسانية الممارسات الإسرائيلية المُدانة قانونياً، وهو ما قرّرت محكمة العدل الدولية، إضافة إلى ملاحقة المحكمة الجنائية الدولية لرئيس الوزراء الإسرائيلي بنيامين نتنياهو ووزير دفاعه يواف غالانت لارتكابهما مجازر في غزة.

لا بدّ من إعادة قراءة طبيعة الصراع العربي- "الإسرائيلي"، لا باعتباره صراعاً دينياً، بل هو صراع وطني من أجل استعادة الحقوق الفلسطينية والعربية المغتصبة وبين عدوان واحتلال واستعمار استيطاني إجلائي، وهو صراع على الأرض وليس على قيم السماء، بين قوى تريد فرض هيمنتها على المنطقة، وبين أبناء المنطقة الذين يريدون حقهم في تقرير مصيرهم والعيش بسلام وأمن ورفاه. وكما قال أنطون سعادة زعيم الحزب السوري القومي الاجتماعي "إن اقتتالنا على السماء أفقدنا الأرض" في لفظة ذات بعد مستقبلي.

والأمر الذي يحتاج إعادة النظر بمناهجها التعليمية لكي تتسم بروح العصر وتواكب النقدّم الحاصل في جميع الميادين، ولاسيما في العلم، خصوصاً ونحن في الطور الرابع للثورة الصناعية واقتصاد المعرفة والذكاء الاصطناعي والطفرة الرقمية "الديجيتال".
العيش المشترك

إن ما تعرّض له المسيحيون والمجموعات الثقافية الأخرى أمرٌ يستحق الوقوف عنده من جانب الجميع مسلمين ومسيحيين، متدينين وعلمانيين، مؤمنين وغير مؤمنين، يمينيين ويساريين، لأنه أمرٌ يتعلق بالعيش المشترك أو بالعيش معاً، فالكل مواطنون، لهم ذات الحقوق وذات الواجبات، وهذا هو المفروض، بل يعتبر من أساسات الدولة العصرية القانونية، وأي إخلال بهذه المعادلة فإنه يمسّ صميم العلاقات والحقوق الإنسانية، علماً بأن المسيحيين ليسوا وحدهم من يدفع الثمن باهظاً، بل إن خسارة المسلمين ستكون فادحةً أيضاً، لاسيما بإظهارهم بمثل هذه الصورة البشعة، وتشويه تعاليم دينهم الحنيف وشريعتهم السمحاء.

ويقتضي الأمر من الجميع من أبناء المنطقة، الحريصين على تقدمها ورفاهها والسير بها في ركب الأمم المتحضرة، العمل لوضع حدّ لاستهداف المسيحيين وبقية المجموعات الثقافية. ولعلّ من أهداف هذا البحث هو حفز النقاش الجاد وإثارة الجدل المسؤول وتوسيع دائرة الحوار حول قضايا التنوّع الثقافي والتعددية في إطار المنظومة الكونية لحقوق الإنسان، فالمنطقة العربية تعاني أكثر من غيرها من الاستلاب والقهر، بسبب محاولات الاستقواء على الآخر الناجمة عن التعصّب ووليدته التطرف، فضلاً عن استمرار العدوان الإسرائيلي المعتقد منذ أكثر من ثلاثة أرباع القرن، وآخره حرب الإبادة على غزة، بعد عملية طوفان الأقصى في 7 تشرين الأول /أكتوبر 2023.

المواطنة وحكم القانون

إن النظر في منظومة التعليم والحقوق والحريات ستكون الخطوة الأولى المهمة لإعادة بناء الدولة الوطنية على أساس "حكم القانون"، الذي يتطلب احترام مبادئ المواطنة كاملة ودون أي تمييز لأي سبب كان، وسيعني ذلك قبول التعددية والإقرار بالتنوع، الذي سيكون سداً ولحمته الإنسان، بعيداً عن التمييز لأسباب دينية أو قومية أو جنسية أو لغوية أو ما له علاقة بالأصول الاجتماعية والرأي السياسي، كما تذهب إلى ذلك الشرعة الدولية لحقوق الإنسان ومنظوماته ومعاهداته الدولية، سواء الحقوق الجماعية أو الحقوق الفردية.¹

ولعلّ الحوار بين المسيحيين والمسلمين، ولاسيما من جانب النخب الفكرية والثقافية وبمشاركة أصحاب القرار يمكن أن يسهم في لُحمة العلاقات ويُزيل بعض الأوهام ويُعزز من الاحترام المتبادل، وينبغي ألا يكون الحوار شكلاً أو مجاملاً، يتسم بالصراحة وروح الحرص والمسؤولية، وتشخيص أهم النواقص والثغرات القانونية والاجتماعية والثقافية، والنظر إلى الآخر لمعرفة.

ولابدّ هنا من أن يتعرّف كلّ فريق على الفريق الآخر ويطلع على ثقافته من مصادرها الأصلية المعتمدة، وليس عبر ما كتب عنه من أعدائه أو خصومه أحياناً، ويرى الباحث أن الفريقين ما زالا يجهلان الكثير عن الآخر، بل يبنيان استنتاجاتهما على معلومات بعضها ليس له أساس من الصحة والحقيقة.

وهو ما دعا سمو الأمير الحسن بن طلال إلى إطلاق فكرة في غاية الأهمية تقول بـ "الاستقلال المتكافئ"، أي الاعتراف بالآخر على أساس المساواة والشراكة والمشاركة، الأمر الذي يشمل الأديان والقوميات والثقافات، ووفقاً لتلك الرؤية تم تنظيم حوار لمتقنين من دول الإقليم من الترك والفرس والكردي والعرب تحت عنوان "أعمدة الأمة الأربعة"، وأساسها الاعتراف المتبادل وعدم التدخل بالشؤون الداخلية والبحث عن المشتركات الإنسانية الجامعة واحترام الخصوصية.² ولعلّ الحوار الذي ينتظم اليوم في إطار المعهد الملكي للدراسات الدينية هو استمرار لمجموعة أنشطة وفاعليات للمجموعات الثقافية والعلاقة بين الهويات العامة والفرعية.

إن مثل تلك الحوارات يُمكن أن تكون مدخلاً للتقاهم الوطني والوحدة الوطنية لترسيخ مفهوم المواطنة والمساواة والعدالة والشراكة والمشاركة باتخاذ القرار على قاعدة المشترك الإنساني ومراعاة الخصوصية الضرورية والهويات الفرعية، التي لا غنى عنها للتعبير عن الكيانية الخاصة. وإذا ما توسّعت تلك الحوارات بين أصحاب القرار والمجموعات الثقافية، سيتم تجسير الفجوة وسدّ الثغرات

¹ أنظر كتابنا "الإنسان هو الأصل - مدخل إلى القانون الدولي الإنساني"، مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان، القاهرة، 2002.

² أنظر الحوار الذي دعا إليه سمو الأمير الحسن بن طلال في عمان وحضرته نخبة عربية وإيرانية وتركية وكردية في 22 تموز / يوليو 2018.

الدستورية والقانونية، فضلاً عن الممارسات السلبية، وسيكون عاملاً مهماً في تعزيز الروابط الاجتماعية والثقافية.

ومثل هذا الأمر ينطبق على العراق وسوريا والسودان ولبنان ومصر وغيرها، إضافة إلى البلدان الإسلامية الأخرى، مع مراعاة خصوصية أوضاع المسيحيين في ظل الاحتلال الإسرائيلي باعتبارهم جزءاً لا يتجزأ من مكونات الشعب العربي الفلسطيني، الذي يطمح إلى تقرير مصيره بنفسه وعلى أرض وطنه وإقامة دولته المستقلة وعاصمتها القدس الشريف.¹

التنوع في إطار الوحدة

شغل موضوع المسيحيين بشكل خاص والمجموعات الثقافية الدينية والإثنية بشكل عام حيزاً غير قليل من تاريخ الشرق الأوسط والحضارة العربية- الإسلامية، لاسيما علاقة المسلمين بالتعددية الثقافية التي يتكوّن منها المجتمع العربي، وانعكاس ذلك على قضايا التفاعل الثقافي والتواصل الحضاري والفكري وما له علاقة بما يطلق عليه اليوم "الاندماج" و"الهوية الفرعية" و"الخصوصية" و"التمييز"، في إطار صورة الآخر والاعتراف به شريكاً بالوطن والمصير.

وخلال العلاقات التاريخية بين المسلمين والمسيحيين بشكل خاص، والتنوع الثقافي بشكل عام، الإيجابي والسلبى أيضاً، فقد كان الحديث يتخذ مناح مختلفة من خلال الثقافة السائدة بين "أغلبية" و"أقلية"، و"هويات كبرى" و"هويات صغرى"، و"هويات كلية" و"هويات فرعية"، و"هويات عليا" و"هويات دنيا" و"هويات سائدة" و"هويات مسودة"، الأمر الذي خلق نوعاً من الصراع والجدل بين محاولات الاستعلاء والهيمنة والتسيد من جهة، ومحاولات للتغلب والتعبير عن الذات والاستقلالية في مواجهة الخضوع من جهة أخرى.

وكل ذلك كان محط نقاش وحوار مُعلن ومُضمّر، حتى وإن اتخذ أحياناً شكل إلغاء أو تهميش أو استتباع، الأمر الذي قاد إلى التصدّع والتآكل التدريجي بصعود نزعات التعصّب والتطرّف والغلو وعدم الاعتراف بالآخر، وما أنتج من عنف وإرهاب ليُصبح إرهاباً دولياً عابراً للحدود باستهدافه إضعاف ثقة المواطن والمجتمع بالدولة، وإضعاف ثقة الدولة بنفسها أمام المجتمع والفرد والمجتمع الدولي.

وإذا كان التعايش والمشاركة الإنسانية يمثل قاسماً أعظم للعلاقة التاريخية المسيحية- الإسلامية، فإن ثمة مشكلات واجهتها الدولة العصرية في العالم العربي تتعلق بمبدأ المساواة والحقوق والحريات، سواءً على الصعيد النظري أو على الصعيد العملي، بمعنى ما يتعلّق بالدستور والقوانين السائدة، فضلاً عن الممارسات العملية، والأمر يمتدّ من تحديد دين الدولة، وأحياناً دين رئيسها، ويشمل بقية مفاصلها وأنظمتها بما يصعب تجاوزه.

¹ أنظر: مقدمة كتابنا "المسيحيون والربيع العربي" (2012/8/25).

وقد ساهم ربيع أوروبا الشرقية في أواخر الثمانينيات في انتعاش موضوع الهوية، وارتقاع رصيد الفكرة الاستقلالية أو الانفصالية من جانب المجموعات الثقافية، ويعود سبب ذلك إلى القمع المعقّق والتمييز المزمّن بحق الهويات الفرعية، فضلاً عن تعاظم الرغبة في التحلّل من الهيمنة والتملّص من أسرها، حيث نظرت الحكومات بشكل عام والمجموعات المهيمنة المتعصّبة بشكل خاص، لاسيّما المجموعات الإرهابية الانفصالية، تنظر إلى الهويات الفرعية والمجاميع الثقافية والدينية بشيء من الاستصغار، بل بريية وشك، سواءً باتهامها التأثير بالخارج أو استخدامها من جانبه أو باعتبارها حاملة لبذور الانقسام والانفصال للكيانات القائمة، ولعلّ بعضها بسبب ذلك ظلّ ينتهز الفرصة أو ينتظر اللحظة التاريخية المناسبة للتعبير عن تطلّعاته، بإدراك أو دون إدراك لحقيقة الإشكاليات والمشكلات التي عانت منها تلك العلاقة الملتبسة وغير المتكافئة في الكثير من الأحيان.

إن تلك الوحدات الكيانية التي كانت "متّحدة" لسنوات طويلة، أو هكذا بدت صورتها منسجمة أو متوافقة، إنما كانت تحمل في أحشائها أو في بعض ثناياها عنصر القهر والإكراه، في حين يتطلب قيام الوحدة الحقيقية: التكافؤ والمساواة والاختيار الحر، خصوصاً في الحقوق والحريات، إضافة إلى مبدأي الشراكة والمشاركة.

وبغض النظر عن التأييد أو التنديد بالعلومة، فقد ساهمت ومعها حركة التغيير في تشجيع الهويات الفرعية على الانبعاث بوجهيها السلبي والإيجابي، على الرغم من بعض تداخلاتها الخارجية التي قادت إلى الاحتراب، وشجّعت عليه، في حين أن زاوية النظر الإيجابية كانت تعتبره محطة جديدة للتعبير عن الهوية الخاصة، ولكن الأمر موضوعياً أدّى وسيؤدي إلى تفتّت الكيانات الكبرى في عالم يتّجه إلى الوحدة، لاسيّما الاقتصادية والاجتماعية والقانونية، في حين تعاني منطقتنا من احتمالات التنشيط والتفتيت، بغض النظر عن الأسباب التي أوصلت الأمور إلى هذه النتائج.

كما ارتبط بروز الهويات الفرعية بانتشار أفكار حقوق الإنسان ومبادئ المواطنة والمساواة، وهو ما كان غائباً في ظل الأنظمة الشمولية والاستبدادية، وتلك إحدى مفارقات الربيع العربي أيضاً، حيث شهدت مجتمعاتنا حراكاً اجتماعياً وسياسياً اتّسم في جزء منه بشيء من الفوضى والانفلات والاستهداف وخصوصاً المسيحيين، وذلك بسبب سياسات الكبت المزمّنة ومحاولات التسيد والتناول على حقوق المجموعات الثقافية، في حين كانت أهداف الربيع العربي، كما هو معلّن، وكما كانت تتمناه الشعوب تدور حول مبادئ الحرية والكرامة الإنسانية ومحاربة الفساد والدعوة إلى العدالة الاجتماعية، وذلك يعني إقرار مبادئ التعددية والمساواة والتنوّع الثقافي والقومي والديني، واحترام حقوق المجموعات الثقافية والهويات الفرعية وخصوصياتها، باعتبارها مسألة كونية وصميمية وتتعلق بجوهر العلاقات الإنسانية، وبضمنها العلاقة الإسلامية - المسيحية.

وقد سبق للباحث أن عالج هذه المسألة في كتابه "جدل الهويات في العراق - المواطنة والدولة"¹، لاسيما على صعيد الجانب النظري، وخصوصاً إفرازات العولمة، أو على صعيد موضوع المواطنة والهوية الجنسية في العراق، كما أفرد فقرة خاصة حول الموضوع الطائفي. بمثابة خاتمة

استغلت بعض الجماعات الدينية الإرهابية و"الإسلاموية"، ولاسيما السلفية والأصولية المتشددة، وبشكل خاص جماعة القاعدة وريبتها داعش والنصرة وما شابههما ما حصل من تغييرات لتتنزل إلى ميدان الصراع بكامل عدتها، وذلك في مواجهة التيار الكوني الذي تعزز في البنية الدولية التي شكّلت مناخاً موضوعياً وذاتياً لمطالبة المجموعات الثقافية بضمان هويتها وصون حقوقها، خصوصاً بعد فشل محاولات الصهر أو التذويب أو التمييز أو التكرار للحقوق بالنسبة للمجموعات الثقافية، لاسيما في ظل غياب مبدأ المساواة التامة والمواطنة الكاملة.

إن علاقة المسيحيين بالدولة العربية المعاصرة حملت في طياتها بذرة التمييز وعدم المساواة، التي أخذت حدتها بالارتفاع، وخصوصاً عند اضطراب عشرات، بل مئات الآلاف من المسيحيين إلى الهجرة منذ سنوات الستينيات والسبعينيات، والتي ارتفعت وتيرتها في سنوات ما بعد الحراك الشعبي الذي حصل في العالم العربي في العام 2011، حيث كانت الهجرة الأعظم وازدياد عمليات الاستهداف العنيفة المباشرة للصروح المسيحية والكنائس والأديرة وللشخصيات والتجمعات المسيحية، وخصوصاً بعد هيمنة داعش، وهو الأمر الذي لا يمكن فصله عن سياقاته التاريخية في دول المنطقة.

ولعلّ من الاستنتاجات التي توصل إليها الباحث بعد عرض الإشكاليات والأسباب لاستهداف المسيحيين في المشرق، هو أن الهوية العربية ستكون أضعف وأفقر وأكثر انغلاقاً حين تكون أحادية، والعكس صحيح فحين تكون الهوية متعددة ومتنوعة وجامعة في الآن، فإنها ستكون أشمل وأعم وأكثر انسجاماً وثقة، لاسيما بالاعتراف بحقوق المجموعات الثقافية، الدينية والإثنية واللغوية والسلالية. وهكذا ستزداد الهوية غنىً وشمولاً واتساعاً بتفاعلها الثقافي. ولعلّ التجارب العالمية خير دليل على ذلك، ناهيك عن تاريخ مجتمعاتنا القريب، أي قبل تعرض المجموعات الثقافية والمسيحيين بشكل خاص إلى الاضطهاد.

وإذا كان الباحث قد اقترح مشروع قانون لتحريم الطائفية وتعزيز المواطنة، كما جرت الإشارة إليه، فإنه واصل ذلك باقتراح مشروع قانون لتحريم التمييز الديني والمعاقبة عليه بأشدّ العقوبات، مع ضمان تشريعات تمنع التمييز لأي سبب كان، وتقرّر مبادئ المشاركة من أعلى مناصب الدولة حتى أدناها، على أساس الكفاءة والمساواة، وليس لاعتبارات دينية أو طائفية أو غيرها، انطلاقاً من مبدأ يقول: نحن شركاء في الوطن وينبغي أن نكون مشاركون باتخاذ القرار.

1 انظر: عبد الحسين شعبان - جدل الهويات في العراق - المواطنة والدولة، الدار العربية للعلوم، بيروت، 2010.

ولا بدّ هنا من إعادة النظر في الدساتير العربية والقوانين بشكل عام بتأكيد مبادئ المساواة والمواطنة الكاملة، ففي ذلك المدخل الصحيح لخلق بيئة مناسبة لإصلاح المجال الديني، حيث لا إصلاح حقيقي دون إصلاح الفكر الديني حسب توماس هوبز. ولكي يحدث ذلك لا بدّ من إصلاح الحقل السياسي، وجعل الحوار والسلم أساسان لا غنى عنهما لحلّ المشكلات الدينية والإثنية التي تعاني منها مجتمعاتنا وغيرها من المشكلات.

ولعلّ منطقتنا تحتاج إلى اقتفاء أثر معاهدة ويستفاليا، التي أوقفت حرب الثلاثين عام " Thirty Years War"¹، التي جاءت بعد حرب الـ 100 عام²، والتي شهدت أوروبا بسببها تدميراً شاملاً، وانتشرت خلالها الأمراض والمجاعات، مثلما عرفت هلاكاً لملايين البشر، يكفي أن نعرف أن 13 مليوناً ونصف المليون من سكان ألمانيا آنذاك قد قضوا نحبهم بتلك الحرب، حيث كانت ما تعرف به ألمانيا اليوم عبارة عن مقاطعات ودوقيات ومناطقيات.

وفي نهاية المطاف تم التوصل إلى صلح يضمن المصالح المشتركة وعدم التدخل والحق في ممارسة الطقوس والشعائر بحريّة، إضافة إلى حريّة مرور البضائع والسلع والتعاون الاقتصادي والتجاري، وقد عرف هذا الصلح باسم "صلح ويستفاليا" العام 1648.

وأختم هذه الدراسة بما كنت قد طرحته في وقت سابق من أنني كمواطن سأشعر باطمئنان أكبر لو حصل وكان رأس الدولة في هذا البلد أو ذاك مسيحياً، وحبذا لو كانت امرأة مسيحية لتضفي لمسة أكثر دفئاً وإنسانية على هذه المواقع الرسمية، وذلك خارج نطاق التمثيل الشكلي أو المحاصصة والتقسام الوظيفي الديني أو الطائفي أو الإثني، بل لاعتبارات الكفاءة والاختيار الحر ومبادئ المساواة والمشاركة والمواطنة وعدم التمييز، لأن ذلك سيعني تعظيم المشتركات الإنسانية وقبول التنوّع والتعددية واحترام حقوق الإنسان.

¹ وهي سلسلة من الحروب والصراعات الدموية التي وقعت معاركها ابتداء في أوروبا الوسطى، وخصوصاً في ألمانيا، وامتدت إلى أراضي روسيا وإنكلترا وكاتالونيا "إسبانيا" وشمال إيطاليا وفرنسا، وهي حرب دينية وطائفية بالدرجة الأولى بين طائفتي البروتستانت والكاثوليك.

أنظر: Wilson, Peter H. The Thirty Years' War: Europe's Tragedy. Belknap Press of Harvard University press, 2009.

² من الناحية الفعلية استمرت الحرب نحو 116 سنة من العام 1337 - 1453 وإن تخلّلتها فترات هدنة وسلام، ومن أسبابها ادعاء الملوك الإنجليز بأن العرش الفرنسي لهم، وبالطبع فإن هناك أسباباً سياسية واقتصادية وشخصية كانت وراء اندلاع هذه الحرب الطويلة.

أنظر: Sumptions, Jonathan. The Hundred Years War: Volume 1, Trail by Battle. University of Pennsylvania press, 1990.